المسرح الاسبانيّ في عصر النّهضة

من الأجناس الأدبية التي ازدهرت وذاع صيتها في اسبانيا ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر المسرح، وتكاد تنفرد اسبانيا بغزارة نتاجها المسرحي، وتواصله بدون انقطاع. وللمسرح الاسباني ميزتان عامتان:

-**أولاهما:** أنه وبخلاف المسرح الفرنسي الكلاسيكي السائر على نهج القدامى، ذو طابع وطني، أي لفهمه وتذوقه يجب الاطلاع على الحياة السياسية، والاجتماعية، والدينية لاسبانيا في أيام ازدهارها الفكري والحضاري. والحق أن كل ما صوره هذا المسرح من عادات، وانفعالات، وأزمات إلا ونابع من تقاليد وأعراف الاسبان عامة وسكان مدريد خاصة. ذلك أن الكوميديا الجديدة نشأت أول ما نشأت بهذه الحاضرة لتعلم سكانها القادمين من جميع الجهات العيش سويا، ولتقترح عليهم نماذج من حسن السلوك والمعاملات بينهم.

-**وثانيتهما:** أنه مسرح رومانسي بالمدلول الفرنسي لكلمة "رومانتيك" التي تعني الحرية المطلقة للمسرحي لاسيما بالنسبة إلى وحدتي الزمان والمكان، والمزج بين المأساة والملهاة، وحق التصرف في الشخوص، والتاريخ، دونما إهمال للواقع الذي يبرز في تفاصيل الحياة اليومية، وحتى في كلام الخدم والأتباع. والحق أن هذا المسرح الوطني والشعبي كان مرآة صادقة للمجتمع الاسباني في سائر عصوره.

أ-البواكير:

ظهرت على يد رجال الكنيسة الذين كانوا ينظمون مسرحيات، بمناسبة الأعياد الدينية، أمسيات مسرحية تعرض خلالها مسرحيات ذات الموضوعات الدينية كالمعجزات والأسرار وتسمى الأخيرة Auto ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر. كما أطلق اسم Auto Sacramental على عرض مسرحي قصير إجلالا لسر القربان، وهو عرض تقي يتم مرة في السنة أثناء شعيرة "حفل الله" المقدسة، أشخاصه رمزيون لا ينفكون عن طرح ومناقشة مسائل دينية هامة، وهو نوع من المسرح يختلف تماما عن الدراما الدينية المسماة أحيانا "الكوميديا الالهية" أو كوميديا القديسين".

وبعد كل هذه المحاولات، يجد المسرح الاسباني أخيرا ضالته مع نهاية القرن السادس عشر ويستقر في شكل كوميديا، وهو الشكل النموذجي للمسرح الوطني الاسباني.

ب-الكوميديا:

من الثابت أن المسرح الاسباني ألفى نمطه النهائي في الكوميديا بمختلف أنواعها كالتاريخية، والفلسفية، والفروسية، ألخ... والكوميديا الاسبانية ليست لها قواعد ثابتة يمكن الاعتماد عليها لتحديدها بدقة. ومع هذا فلا بأس من ذكر العناصر الثلاثة الآتية:

1-ميزاتها:

يتسم فعل الكوميديا بكثرة الحركة، والتغيرات الطارئة، والحوادث المفاجئة غير المتوقعة والمشاهد السحرية البعيدة كل البعد عن التحليل النفسي، وهذا ما يفسر اللجوء مرارا إلى الأشياء العجيبة كتكلم الموتى، وظهور الملائكة والشياطين وما شابههم.

أما عنصر الضحك، فهو موجود حتى في الحوادث المؤلمة ويجسده "الغراسيوز و" *Gracioso* أو المهرج الشبيه بالبهلوان الأنجليزي. يشير اسمه إلى أن العفو، والود، والخفة يجب أن تكون خصائص مميزة للعبته. و"للغراسيوزو" أهمية كبرى في الكوميديا لقيامه فضلا عن إثارة الضحك، بدور الوسيط الذي لابد منه، فهو من يتحدث إلى الجمهور بلسان المسرحي وإلى بقية الممثلين بلسان الجمهور.

وفيما يخص هدف المسرح، فيكمن في وصف المجتمع الاسباني بصدق وواقعية حتى ولو كان هذا الوصف يتخذ شكلا عنيفا وبربريا في غالب الأحيان، لكن واقعية الكوميديا الاسبانية ليست بالمسطحة ولا الفظة، لأن المسرحي يراها بعيني الشاعر ويجملها بغنائيته.

2-دافعها:

للكوميديا حافزان رئيسان: الشرف والحب الغيور، وعليهما تبنى الدسائس وتتوقف القوة الدرامية لها.

فالأول هو عبارة عن قوة خفية، مثلها مثل القدر عند الاغريق، تستدرج صاحبها إما إلى التفاني الأسمى، وإما إلى ارتكاب الجرائم البشعة، فالشرف المدنس يتطلب دائما الدم والثأر له، وفي سبيله تذوب الأخلاق والقوانين ويستباح الغدر والخيانة كطعن بطل المسرحية "روخاس القروي رجل شريف" خصمه من الخلف قائلا له: "ها هو ذا الشرف".

والثاني جد وثيق الصلة بالأول، فالحب في المسرح الاسباني هو دائما مسألة جدية ويتعلق غالبا بالحياة الزوجية، وهو أيضا مأساوي لارتباطه بالغيرة الشديدة على العرض والسمعة، وهيهات أن يقبل الاسباني هتك شرفه ولا التهريج به.

3-فنياتها:

يغلب على خطاب الكوميديا ذات الفصول أو الأيام الثلاثة وما يقارب الثلاثة ألف بيت شعري، الكلام في الحاضر مع ضمير المتكلم، وتبنى حبكتها الأساسية على صراع ذي حوافز طبيعية أو شبه طبيعية كالحب، والشرف، والغيرة، والشجاعة، والعدالة. ولا تخضع الكوميديا الاسبانية لوحدتي المكان والحدث، وهي تدوم ثلاث ساعات ونصف تقريبا، ولها مقدمة ورقصة ختامية تتخللهما فواصل ترفيهية. وحتى ولو كانت التسلية غرضها، فهي لا تخلو من الوعظ، وضرب الأمثلة الخلقية الموجهة إلى الجمهور .

ج: الدراما الدينية:

تشترك الكوميديا الالهية، أو الدراما الدينية مع سابقتها في المميزات العامة، وتنفرد عنها بما يلي:

أولا: يكسو الدراما الدينية تدين صادق، وعميق لا تشوبه أية وقاحة حيال رجال الدين، وتطفو على مضامينها فكرة الإيمان بأن الرحمة الالهية غير محدودة، والشك فيها غير مقبول أبدا، قبل نهايتها يتراجع أبطالها، تائبين نادمين، عما اقترفوه من آثام وجرائم.

ثانيا: تنزع الدراما الدينية نزعة صوفية ضيقة لكونها تعنى بالقديسين المحليين أكثر من عنايتها بالأنبياء والرسل.

ثالثا: يظهر فيها ميل إلى المجادلات اللاهوتية.

في هذين النوعين المسرحيين لمعت أسماء كل من "غويلهان دي كاسترو" *Guillen de Castro*، "لوبي دي فيغا" *Lope de Vega* هذا الأخير ألف أكثر من ألفي مسرحية، إضافة إلى "خوان رويس دي ألاركون *Juan Ruiz de Alarcon* ، و"تيرسو دي مولينا"*Tirso de Molina*، و"فرنشيسكو دي روخاس"*Francesco de Rojas*، و"بدرو كالدرون دي لاباركا" *Pedro Calderon de La Barca*.